(16)

الرسالة التي غيرت كل شيء

في 25 أكتوبر 2001 بعد شهر من وقوع الأحداث عند الساعة الواحدة بعد الظهر بينما كنت جالسة ومنهارة في المجلس وسارحة في التفكير في كيفية مواجهة ما أصابني، وكيف يمكن أن أساعد زكريا بالرغم من أني أجهل أين هو، وكيف حاله؟ وما هو دوره في كل هذه الأحداث؟ مع العلم أن قلبي ما زال يصرخ ويقول لي هذا غير معقول، إنه لم يفعل شيئاً بالرغم من كل الشك الذي يراودني ويؤلمني بينما أنا كذلك، وموزع البريد يدق الباب، ويقول هناك رسالة واحدة. عرفت من الكتابة أنها من زكريا. كيف استطاع إرسال هذه الرسالة من السجن، وبقي هذا اللغز إلى يومنا هذا.

كان قلبي يدق وينتفض هذه رسالة من ولدي، هل كانت فعلاً بين يديه. لم أهدأ إلا بعد عشر دقائق، بعدها بدأت قراءة الرسالة.

- أهلاً يا أمي.

- إن شاء الله سوف تغفري لي كل الهموم التي أسببها لك حالياً، وكل الهموم التي سببتها لك في الماضي لا تقلقي. بخصوص ما حصل لي في أمريكة، لأني لم أفعل شيئاً. وسوف أثبت ذلك في الوقت المناسب إن شاء الله، ليس لي الحق في الاطلاع على ملف القضية، لكني متأكد أنه تم الحكم علي سابقاً، بعد أن أخبرني المحامي الذي تم تكليفه بقضيتي بما يحاك حولي وضدي، لكن يجب أن تعلمي

أنه إلى يومنا هذا لم يتم توجيه أي تهمة رسمية لي. مهما حصل فأنا لست خائفاً إن شاء الله؛ لأن حياتي ليست بأيديهم، فالله هو الذي يقرر ماذا سيحدث لي. إني أصلي وأدعو الله أن يخرجني من هنا، لست على استعداد لتسهيل مهمتهم، إنهم لم يكتشفوا متهماً غيري، لذا وضعوني في الواجهة، كبش الفداء كما يقولون، لا تقلقي إنهم سيحاولون خلق التهم والشهود، لكني أنا أيضاً مسلح بالإثباتات، وشاهدي هو الله. إن شاء الله سوف يقوم الله بإفساد مخططاتهم، وإحباط مؤامراتهم. إني لا أريد التكلم كثيراً عنهم لأن ذلك مضيعة للوقت.

- أتعرفين يا أمي؟ إني أفكر فيك يومياً، وأفكر في كل أفراد العائلة، أنا أعرف أننا كلنا أسأنا إليك كثيراً. منذ أيام كنت أفكر فيك، وفي المشكلات التي أحملك إياها، كما فكرت في مشكلات أخي عبد الصمد، ولم أنس جميلة ونادية. كل هذا كثير عليك يا أمي، ولهذا أنا أصلي من أجلك يومياً حتى يخفف الله عليك هذا العبء الثقيل، ويزيل الألم الذي بقلبك. أهم شيء يسعدني هو أني على يقين أنك تؤمنين بالله، وإن شاء الله سوف تزول كل هذه المحن. حافظي على صلواتك يا أمي، واغفري لي، أنا أعرف أنه من الصعب عليك في هذه الأيام بالذات تحمل ما تتحملينه، وأفتقد الكلمات للتعبير عن أسفي وندمي. كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أني أحبك كثيراً. وأتمنى أن تلتحقي بي للعيش معي عندما تنتهي كل هذه المشكلات؛ لا تقلقي على صحتي لأني بخير والحمد لله، ومعنوياتي مرتفعة جداً، إن السجن يربي الرجال ويجعلهم ينظرون إلى الحياة بوضوح،

ليس هناك أي تسلية تذكر لا تصدقي ما يكتب في الجرائد، كل ما يقال افتراء وكذب. إنما يكتبون لتسويق جرائدهم فقط. أتمنى أن ترجعي إلى المغرب إنه أفضل لك للتقرب إلى الله أكثر، أعرف أنه من الصعب ترك بيتك والعودة إلى المغرب، أتمنى أن تجدي حلاً لذلك. أقبلك كثيراً يا أمي لا تفكري كثيراً في، أنا سعيد وبخير والحمد لله، إني أنتظر فقط اليوم الذي أثبت لهم فيه براءتي في هذه القضية المفتعلة، وإني أتحسر على السنوات التي أضعتها معك بسبب الغيرة من معاملتك لعبد الصمد، إنه الشيطان الذي حطم التماسك والترابط العائلي، وإني أصلي وأدعو الله أن يجمع شملنا في الجنة إن شاء الله.

في هذه اللحظة أنا سعيد لأني أكتب لك، لذا أطلب منك أن تبتسمي بالرغم من كل الظروف القاسية التي تحيط بك، لأني أحبك كثيراً وأتمنى الإسهام في إسعادك. سوف أحاول الزواج - إن شاء الله - وأنجب أولاداً صالحين لإرضائك، لأني أعرف أن هذه هي أجمل أمنياتك إذا أراد الله أن يتم ذلك سيتم إن شاء الله وعما قريب. لا تقنطي من رحمة الله، لأن الحياة ملأى بالمفاجآت، ولا يعرف المستقبل إلا الله. لو قيل لك يوماً ما عندما كنت بنتاً صغيرة سوف تعيشين في فرنسة لانفجرت ضحكاً. لو اجتمع العالم كله لمساعدتك وإسعادك لا يتم ذلك إلا بإرادة الله ومشيئته، ولو اجتمع العالم كله لإيذاءك والإساءة إليك لا يتم ذلك إلا بمشيئة الله أيضاً، لذا كوني مطمئنة ودعي قلبك يطمئن؛ لأن كل ما يحصل للإنسان لا يتم إلا بمشيئة الله وإرادته، تأكدي يا أمي أني سأتمكن من الدفاع عن نفسي ضد أكاذيبهم بكل ما يسكن داخلي من قوة وإيمان، لقد خلقني الله

وأنت أمي ويجب أن تثقي بي وفي قدراتي. إن إيماني قوي وأنا على يقين أني سوف أخرج من هنا إن شاء الله، وأسعدك إن شاء الله. عندما كنت اقرأ سورة يوسف عليه السلام -في أحد الأيام- تذكرت ما كان يدور في بيتنا من مكائد سببها نحن الأربعة، لم نفهم شيئاً وعذرنا الوحيد، أن ذلك المجتمع الذي كنا نعيش فيه لا يساعد على إرساء الاحترام داخل العائلة الواحدة، وهذه قصة أخرى. إنني لا أستطيع مكالمتك هاتفياً، لكني أتمنى الاستمرار في الكتابة إليك، أفضل ألّا تكتبي لي لأني أعرف أنهم يطلعون على الرسائل، وأنا أعرف أنك تفكرين في كل لحظة. إن شاء الله سوف أخرج قريباً. المحاكمة لن تتم قريباً لكنها ستتم بسرعة ليتم تبرير الجرائم التي يرتكبونها ضد إخواننا المسلمين في أفغانستان، صلي وادعي لي ولإخواننا المسلمين المضطهدين، الله يعرف ما في القلوب، وسوف يساعدنا إذا كانت نيتنا صادقة، ولا تقلقي؛ لأن الله أحسن الحافظين، أقبلك كثيراً ولك كل الحب مني، وأطلب منك العفو عني.

ابنك زكريا.

ملاحظة: أخبري إخواني وأخي أنني سوف أراسلهم قريباً.

ضممت الرسالة إلى صدري، وأخذت أقرؤها وأقرؤها وأعيد قراءتها، حتى شعرت بحرقة في عيني.

لكني كنت قلقة من تكراره اسم الله والرسول، ولكن هذه الرسالة غيرت كل شيء. زكريا يقول إنه بريء إني أصدقه وأعتقد ذلك، إذا كان فعلاً مسلماً متمسكاً بدينه كما يقول أظن أنه صادق فيما يقول، ولا يتجرأ بالكذب على أمه.

فهو يطالبني بعدم القلق تجاهه، ويقول إنه سيدافع عن نفسه وحده، لكني أشعر أن ذلك مستحيل. لن يسمحوا له بالدفاع عن نفسه بصفة عادلة.

اتخذت قراري، سوف أساعده وأقف بجانبه، وأدافع عنه. سوف أحارب من أجل إثبات الحقيقة.

مدة طويلة لم أجد ما أقوله للصحافيين الذين يحاصرونني ويسألونني عن براءته من جرمه، وهل هو الرجل رقم عشرين في قائمة الإرهابيين القراصنة؟ إن رسالة زكريا فجرت قوة عظيمة داخلي، لقد أخرجني من خوفي وشللي، ويجب أن أفعل أي شيء من أجل مساعدة زكريا، والدفاع عن حقوقه. في صباح اليوم بالذات كنت منهارة ودون أي حركة، لكن الآن أشعر أني قادرة على هز الجبال وهدها، ابني متهم بالمشاركة في أكبر مذبحة يشهدها الشارع اليوم، ولا أريد أن تنتهي هذه المأساة بمحاكمة غير عادلة وظالمة لولدي، يجب أن أفعل أي شيء لمعرفة الحقيقة. لكي أمكن العدالة من الحكم على ولدي على ما ارتكبه فقط. على ما فعله فقط، لا على عقائده وإيمانه، ولست أدري أين سأصل، ولا كيف سأصبح بعد هذه المعركة الشرسة، لكن زكريا ولدي ويستحق ذلك وسيبقى ولدي إلى الأبد، وحتى وإن ضل أثناء المعركة لن أتخلى عنه.

كان 11 سبتمبر يوماً أسود، بدأت بوادر المعركة السيئة تكشر عن أنيابها، ومنذ شهرين وأنا أقرأ الجرائد كلها تقريباً لمعرفة كل جديد عن قضية ولدي، وأقضي أغلب أوقاتي متعلقة بالإنترنت ولا أترك معلومة إلا وأتابعها. بالرغم من ضعف إلمامي باللغة الإنجليزية وندرة مصطلحاتها في ذاكرتي كنت أتابع القنوات الأمريكية مع أن ذلك لم يحصل من قبل،

وعبر إحدى هذه القنوات عرفت أن وزير العدل الأمريكي «اشكر وفت» طالب بالإعدام لولدي؛ لأن زكريا متهم بالتآمر على أمن الدولة، والتحضير لأحداث 11 سبتمبر. وبوضوح ولدي متهم بالانتماء إلى الجماعة الإرهابية المعتدية، هناك ستة تهم موجهة إليه، ومن بينها أربعة عقابها الإعدام؛ الإعدام! ترددت هذه الكلمة كم مرة داخل رأسي.

– هذا غير معقول، لا معنى لكل ما يحصل، لقد ألقي عليه القبض قبل الأحداث بشهر وتم التحفظ عليه في السجن.

لا أفهم شيئاً مما يحصل، كيف يمكن المطالبة بإعدام شخص لم يرتكب جريمة. هذا غير منطقي، ربما الغرض من كل هذا هو الثأر دون النظر إلى العدالة والعدل.

توقفت عن التفكير مدة طويلة عاجزة عن التلفظ بأي شيء، ثم بدأت تجول بذاكرتي إعدامات رأيتها في الأفلام أو في نشرات صحفية خاصة في التلفاز، وكأنها داهمتني لتزيد من مأساتي، لكنها زادت من قوتي، وضاعفت عزيمتي.

لا يجب إثبات الحقيقة فحسب؛ بل يجب علي الكفاح من أجل إنقاذ ابني من حبل المشنقة. سوف أقاتل بكل ما أوتيت من قوة حتى آخر رمق حياتي.

(17)

دوامة بلا نهاية

وفي يوم 13 سبتمبر 2001، بدأت العدالة الأمريكية تتحرك بسرعة، بعضهم يطالب بالمحاكمة في بداية سنة 2003 وهذا ليس كاف للسماح لزكريا بالإعداد للدفاع عن نفسه.

بعد أيام سوف يجلس زكريا أمام القاضي للإدلاء باعترافه مذنباً أو غير مذنب، وسوف يتم اتخاذ الإجراءات اللازمة لمحاكمته، ويجب أن أحضر هذه الجلسة، أريد أن أثبت لولدي ولمن يريد محاكمته بسرعة وللعالم أجمع، أن زكريا ليس وحده، وأن له أمّاً مثله مثل أي مخلوق في العالم، وأثبت لهم أني جئت من أجل الدفاع عنه، ليحاكم محاكمة عادلة يسودها الإنصاف والعدل.

ولكن كيف يمكن لي مساعدته؟ إني لا أجيد التحدث بالإنجليزية، ولا أمتلك أي رصيد قضائي كما لا أمتلك من المال ما يكفي لخوض هذا الماراتون القضائي الصعب. سلاحي الوحيد هو شجاعتي التي سوف أواجه بها قضاء أعتى قوة في العالم.

العديد من المحامين أبدوا رغبتهم في مساعدتي، وهذا ليس شفقة منهم. قضية مثل هذه تعدّ قضية العمر بالنسبة لهم إعلامياً وعملياً، وكنت على وشك قبول عرضهم، لكني اقتنعت أن العمل مع محام قد يقيد حريتي، ولا أستطيع التحرك كما أريد.

obeikandl.com

فهو سوف يحاول مراقبة كل ما أقول وكل ما أفعل؛ كل ذلك من أجل مصلحة زكريا، ولكن بالنسبة لي فهذا مستحيل، أريد المحافظة على حريتي. المهم الموافقة غير واردة، ولست على استعداد لدفع أتعاب أي محام مهما قل الثمن. المهم لست أنا التي سوف يدافع عنه بل زكريا. في هذه الأثناء طلب مني أحد المحامين بالمنطقة، وهو معروف بمواقفه ضد الحكم بالإعدام الدفاع عن زكريا. استغربت ذلك منه؛ لأنه لم يطلع على ملف القضية، بالإضافة إلى ذلك زكريا يرفض أي محام للدفاع عنه، لكن مهما كان الأمر هذا كرم منه، ويستحق التقدير سوف أفكر في طلبه هذا.

في 27 ديسمبر، وقبل ساعات من ركوب الطائرة للسفر إلى واشنطن، تم استقبالي برفقة المحامي السالف ذكره السيد «لورو» في وزارة الخارجية، أريد معرفة لماذا لا يهتم أحد بقضية ولدي؟ ولماذا الحكومة لا تتخذ أي إجراءات لطلب مقابلة ولدي في السجن، للتأكد من حسن معاملته أو عدمها، فهو مواطن فرنسي، وحتى لو كانت له أي علاقة بهذه الأحداث، فله بعض الحقوق حسب ما أعلم.

«أغرقوا السمكة» كما يقولون، وادعوا أن زكريا لم يقدم طلباً رسمياً للمطالبة بزيارته، ولكنهم سوف يهتمون بقضيته في الوقت المناسب. غادرت الوزارة وأنا متأكدة أنه لا يجب الاعتماد على أحد والاتكال على الله، والاعتماد على نفسي فقط، لمساعدة ولدي.

أقلعت الطائرة بعد الظهر، ووسائل الإعلام حاضرة معنا، قناتان للتلفاز ترافقنا، ترددت كثيراً قبل الموافقة على مرافقتهما لنا، وكنت خائفة أن يشغلني حضورهم، ويمنعني من تكريس كل جهدي لولدي، ويؤثر علي جسدياً وفكرياً، لكني عرفت طريقة التصرف مع وسائل الإعلام. كل

شيء بسيط وغايتنا مشتركة، هم غايتهم إعداد نشرة خاصة، وأنا غايتي توجيه رسالة إلى الرأي العام، والضغط على الحكومة، ومَن ورائها على العدالة في فرنسة والولايات المتحدة. كل ذلك من أجل إظهار الحقيقة، ودونهم لن أستطيع الظهور في الواجهة، وحتى الخروج من ناربون حيث أسكن، وسوف لا يعرف أحد شيئاً عن زكريا وهل هو بريء أو مذنب؟

هذه هي المرة الأولى التي أركب فيها طائرة كبيرة مثل هذه، وهي المرة الأولى التي أسافر فيها إلى الولايات المتحدة.

رجال الصحافة الذين رافقوني قاموا بتسليتي والتخفيف عني، وكنت أرى في نظراتهم وتصرفاتهم أنه لا أحد منهم يلومني، ويصدر أي حكم ضدي، وهذا ما أثلج صدري وأسهم في التخفيف عني، مع العلم أنه في بداية القضية كان الكثيرون لا يرون في سوى أم الإرهابي الخطر، والكل كان يلومني عن الدفاع عنه، أنا لا أريد تبرئة ولدي، أو التقليل من أحداث 11 سبتمبر؛ بل أريد معرفة الحقيقة والدفاع عن الحق. إذا كان يستحق الإعدام فليكن ذلك، ولكن لا يعدم بسبب شيء لم يرتكبه.

بعد سبع ساعات وصلت الطائرة. عند دخولنا المطار شعرت بغليان داخل قاعة الاستقبال، هناك حواجز وشرطة منتشرة في كل شبر من القاعة، وخاطبني أحدهم بالفرنسية، فقلت له هل هناك حفل.

- لا هذا من أجلكم.

- بقيت جامدة، كل هذا من أجل استقبال أم إرهابي.

بدأت المواجهة.

كان الكل ينظر لي ويتفحصني، كل هذا العالم حضر من أجلي، بدأت رجلاي تهتزان. تمسكت بعربة الأمتعة لكي لا أسقط، وكلما أتقدم إلى الأمام يزداد خوفي، شعرت بجفاف شديد في فمي، وكانت إحدى الصحفيات بجانبي لمساندتي ومواساتي، لكني كنت غير قادرة على التفاعل معها، وحتى التلفظ بكلمة واحدة. كم عدد كل هؤلاء الذين يواجهونني؟ لا أعرف. أربعون أم خمسون، ستون، سبعون. لا أستطيع حصرهم، لم أشاهد في حياتي هذا الكم من الصحافيين، وهناك حاجز مكون من أجهزة الإعلام والكاميرات، إضافة إلى بقية الزوار الذين يتطلعون من خلف رجال الأمن. كل شيء جاهز لأقوم بأول مناظرة مع الصحافة المحلية والعالمية، هناك منصة تم وضعها من أجلي.

تأكدت في هذه الأثناء من المعمعة التي وضعت نفسي فيها، وتأكدت أن قضية ولدي لا يستهان بها، ولم أتوقع يوماً ما أن يكون لها صدى مثل هذا، شعرت أني مثل بعوضة، كيف سأتمكن من مواجهة كل هذا العالم؟ كل هؤلاء الذين ينتظرون أول كلمة تصدر عن أم إرهابي خطر، كيف أتفادى الفخ الذي نصبوه لي؟ أشعر كأني رميت نفسي في فم ذئب جائع، ويجب أن أتحلى بالشجاعة ولا أبكي، يجب أن أبقى مرفوعة الرأس. بدأت الأسئلة تتوافد من أرجاء الصالة كلها.

كيف يمكنك حب ولدك بعد الذي فعله؟ ما رأيك في اعتداءات 11 سبتمبر؟ هل ستساندين معركة زكريا؟ عبر أسئلتهم تأكدت مما يكنون تجاهي، بدأت أهيئ نفسي للرد على أسئلتهم دون أي تفكير، ولا تركيز سالت الكلمات من صميم قلبي، أنا لا أدعي أن ولدي بريء. إذا ارتكب

جريمة فليحاكم عليها، ولكن لا أريد أن يكون كبش فداء. نعم، أنا أحب ولدي وسيبقى ولدي، وأنا متأكدة أن كل أم في العالم تتفهم ما أقول. نعم لقد بكيت عندما شاهدت الأبراج تنهار، وما زلت أبكي مع كل الأمهات اللاتي فقدن عزيزاً غالياً. شاهدت تغيراً على وجوه الحاضرين، وبعضهم واجهني بابتسامة لطيفة. اكتشف رجال الصحافة أني لست محامية، أنا مجرد أم تبحث عن الحقيقة والعدالة، من أجل ولدها.

وصلنا أخيراً إلى الفندق، كانت غرفتي مواجهة لعمارة كبيرة بنيت من القرميد الأحمر، وكنت أنظر إليها باستمرار لست أدري لماذا كنت أشعر أن هناك أحداً أو شيئاً ما بداخلها يناديني ويستنجد بي؟

بعد يومين فتحت التلفاز فرأيت صورة زكريا، ولست أدري متى تم تصويره، كان ملتحياً ونظراته تخيفني، بدأ عرض صور المبنى الذي هو بداخله. عرفت عبر هذا العرض أن المبنى هو المبنى نفسه الذي يواجه غرفتي يفصله شارع عن غرفتي. كنت أتمنى قبل سفري أن أكون قريبة من سجن ابني، وها هي أمنيتي تحققت، لكن لم أكن أتصور أن أرى السجن من نافذة غرفة إقامتي، وأواجه رمز كل همومي عبر هذه النافذة.

في الصباح الباكر قام المحامي السيد روكس الذي قدم معي من فرنسة، بإعداد مقابلة مع المحامي جيرالد زركين المعين من قبل المحكمة للدفاع عن زكريا، بما أنه لا يوجد مترجم يجيد اللغات فقد كانت المهمة صعبة، لكن كل ما فهمته من كلامه بعد أن تحدثت معه بخصوص رسالة زكريا جمّد دمي.

أتعرفين يا مدام أني أزاول مهنة المحاماة منذ عشرين سنة، فكل أمهات المجرمين الذين قمت بالدفاع عنهم تقلن لي إن أولادهن أبرياء، وأنهم لم يرتكبوا شيئاً، قال ذلك بكل برودة.

بقيت مذهولة، كيف سيدافع عن ولدي وهو متأكد من أنه مذنب قبل أن يراه. ولدي يواجه الإعدام وهو لا يبالي. قال لي هذا وكأني أم أكبر مجرم محترف في العالم، لقد تجاوز الحدود. نهضت من مكاني مستعدة للانصراف لكن السيد روكس منعني وأقنعني ألّا أغادر، لأننا بحاجة إلى خدماته.

اغتنم الفرصة وطلب منه تقديم طلب للمشاركة رسمياً في الدفاع عن زكريا.

لكن المحامي الأمريكي سأل السيد روكس قائلاً:

- من أنت؟ وهل أنت محامي السيدة الوافي.

- لا أنا قدمت للدفاع عن زكريا.

- عرفت الآن، ما عليك إلا تقديم سيرتك الذاتية، وسوف نقوم بدعوتك.

- اغتنمت الفرصة وعرضت عليه الرسالة التي أرسلها لي زكريا وقلت له:

- أنا أعرف أنه إسلامي، لكنه بريء من كل ما حصل، وأعرف أنه لا يكذب ما زلت تحت صدمة ما قاله، لكني طلبت منه أن يساعدني على الأقل لزيارة ولدي.

قال لي السيد زركين، إن ذلك ليس من صالحك في الوقت الراهن، ثم شرح لي أن المقابلة تحت إشراف رجال من الأف - بي - أي. لتسجيل كل ما يقال أثناء المقابلة، ثم قال لي إنه يخشى أن ما يقال في المحادثة قد يؤثر سلبياً على زكريا أثناء محاكمته.

هذا شيء فظيع، ولدي قريب مني، ولا أستطيع مقابلته والتحدث إليه. هل تتألم مثل ما أتألم يا زكريا؟ قلت ذلك وأنا أنظر إلى جدار السجن المواجه لي والدموع لا تفارق عيني.

الثاني من يناير عام 2002 هو يوم أول جلسة، لقد حصلت على الموافقة لحضور هذه الجلسة. لكن في اللحظة الأخيرة امتنعت عن الذهاب، لأني لست قادرة على رؤيته في لباس السجناء. فضلت المتابعة عبر التلفاز، لكني لم أفهم شيئاً، وخصوصاً أنهم قاموا بعرض صورة زكريا التي رأيتها قبل أيام، التي لا أريد رؤيتها، لأنها تخيفني. مهما فعلت، ومهما تجنبت هذا العرض، فالعذاب يرافقني في أي مكان.

عند رجوع السيد روكس من المحكمة لم أترك له مجالاً للتنفس سألته قائلة:

- كيف حاله؟ هل هو مخيف مثل الصورة؟

- لا فهو طبيعي جداً، لقد انخفض وزنه، ويبدو في صحة جيدة.

- الجلسة لم تكن سيئة.

- لقد تكلم زكريا، وقال إنه يرفض أن يدلي بأي تصريح، سواء أكان بريئاً أم مذنباً.

فعل ذلك لكي يحرجهم؛ لأن العدالة في أمريكة والمحاكمة لا تستأنف إلا إذا اعترف المحاكم أنه مذنب أو غير مذنب، لكن القاضي وهي امرأة تجاوزت الحاجز الذي وضعه أمامها زكريا، وعدّت سكوته أنه غير مذنب، وعدّت ذلك كافياً لمتابعة المحاكمة فيما بعد.

بعد هذا غادر زكريا، وهو يخاطب نفسه أنه سلّم أمره لله سبحانه وتعالى، وأنه عبد الله وخادمه. كل الجرائد ركزت على هذه العبارة لما فيها من قوة الإيمان بالقدر خيره وشره. إنهم لا يعرفون أن من طبع العربي أن يتلفظ بذلك في أوقات الشدة، وعند أي طريق مسدود، لا يجب تفسيره بأكثر من ذلك. وخصوصاً من طرف من يريد الإطاحة بولدي وتشويه صورته، هو ليس بحاجة إلى ذلك.

رجعت إلى فرنسة بقلب محطم، لست أدري إذا كنت سأرى زكريا في يوم من الأيام. تأكدت في أمريكة أنهم يعدّونه، رمز البربرية التي فتكت بكثير من الأبرياء، كما تأكدت أنهم لن يطلقوا سراحه أبداً، وسوف يعملون كل ما في وسعهم لإيصاله إلى حبل المشنقة. أما هو فقد سلم أمره لله، ولا يريد الدفاع عن نفسه؛ بل العكس هوالصحيح. إذا أراد أن يحكم عليه بالإعدام، فلن يحاول التهرب من ذلك ولا الدفاع عن نفسه.

(18)

الرجوع إلى الأصل

في شهر يناير 2002 بعد كل هذه الإهانة التي حصلت لي في أمريكة قررت الذهاب إلى المغرب، انحراف ابني، وارتماؤه في أحضان التطرف والمتطرفين قذف بي في الماضي التعيس الذي عانيت منه في عز شبابي، وعادت صور الماضي الكئيب لمضاعفة حزني وزرع الرعب في داخلي، وشعرت بالضياع هل هناك معنى لكل هذا العذاب؟

لقد أصبحت حياتي وحياة زكريا في دوامة مخيفة، وشعرت لأول مرة أنني مطالبة باستجواب الماضي من الأجداد لمعرفة ما سبب كل ما يحصل لي.

أريد قبل كل شيء مقابلة أمي. أريد معرفة ولادتي، وكيف تمت؟ معرفة طفولتي، ومعرفة كل شيء أخفته عني، لكن أمي تلتزم الصمت. وتقول لي: على أي شيء تريدين أن أكلمك. ليس هناك أشياء خفية ولا مخفية، ومهما كان الأمر، فهذا الماضي. قالت ذلك بقسوة، في عاداتنا وتقاليدنا الأم وابنتها لا تتناقشان، هذا من المحرمات فهي لا تفهم، ولا تريد أن تفهم أني بحاجة إلى معرفة أسباب شقائي وأنا طفلة واستمرار شقائي إلى يومنا هذا. ولماذا أشعر أني غير محبوبة ومكروهة، من أين جاء تعطشي للحرية وتعنتي في الرغبة في العيش بحرية بعيداً عن العنف وتقاليد غابرة. أبحث اليوم عن قطع لعبة مبعثرة وعن المفتاح الذي قد

يساعدني في فهم ما حصل لي وما يحصل لي إلى يومنا هذا. على الرغم من جمود أمي أصررت عليها سائلة:

- في أي يوم ولدت؟ هل كان يوماً أو شديد البرودة مكسواً بالثلج وهل كان أبي مهتماً بقدومي؟
- أهم ما أتذكر أني وضعتك بمفردي، ودون مساعدة أي قابلة، لم يكن هناك أحد بالبيت، هكذا تعلمت من ولادتك وأصبحت قابلة القرية.
- هذه أول مرة تصارحني بهذه المعلومة.
- ما دمت تعرفين تاريخ ميلادي، لماذا لم تقيمي لي أي حفلة بمناسبة عيد ميلادي أبداً؟
- ما الفائدة من ذلك، حتى أنا، أمي لم تفرح بي أبداً، في تلك الحقبة في كل العالم العربي والعالم الإسلامي ليس هناك من يهتم بعيد الميلاد، ولا بيوم الميلاد سواء كان جميلاً أو سيئاً. هذه الأشياء لا تهم. لكنها بالنسبة لي مهمة؛ لأنها تميز بينك وبين الناس العاديين. يا للعار إذا كانت المولودة أنثى. فالمرأة في الماضي ليس لها الحق أن تسأل عن تاريخ ميلادها، أو عيد ميلادها، ليس لها الحق في معرفة اسم من سيكون زوجها مستقبلاً، أو من هو أيضاً، حتى يأتي اليوم الموعود، ويقال لها هذا هو زوجك. هذا ما حصل لي فعلاً. مثلي مثل أمي، حتى هي تزوجت وعمرها إحدى عشرة سنة. قالت لي أنا «محظوظة»؛ لأن أباك كان يتمتع بأخلاق عالية، ولقد أصبح شرساً بعد ولادة أخيك. أخلاق فاضلة، هذا هو كل طموح أمي، هذا هو

طموح كل الأمهات. كيف أشرح لها أن الزواج حب قبل كل شيء، ولا يجوز تدخل أي إنسان مهما كان في زواج أي بنت.

لأول مرة أشعر أن المحادثة، هي محادثة امرأة لامرأة، لقد تجرأت أمي، بمصارحتي أنها لم تشعر بالحب تجاه أبي أبداً.

- إذا لم يعفُ أبوك عني، لن أرى الجنة أبداً. لأني عذبته كثيراً.

- حتى وإن كان رجلاً يحب تعذيب النساء.

نظرت لي متعجبة وكأنها لم تفهم ما أقصد ثم قالت: لكن نحن نساء، ونختلف عن الرجال.

نظرت إليها دون الإجابة عمّا قالته، لكنها فهمت أني أشفق عليها، وأرثيها على ما هي عليه.

قالت لي:

- إنه سهل عليك التفكير بهذه الطريقة، لكن عصرك وعصري يختلفان.

قلت لها:

- لكنك أنت التي أجبرتني على العيش مثلك، وكنت أرفض ذلك وبقوة.

- قضيت كل حياتي في التخبط في عالم لا يسمع ولا يبصر. وجدت نفسي بعيدة كل البعد عن تقاليد هذا البلد وعاداته التي تسيطر على عقول كل الناس الذين يتمسكون بها، ويحافظون عليها دون تردد ولا

obeikandl.com

تمرد، فالرجال قوامون على النساء. إنهم يطبقون الإسلام وفقاً لما يرضيهم ويخدمهم، لقد بسطوا القوانين التي تريحهم، أما المرأة فقد تم وضعها جانباً مثلها مثل العبيد لتخدم الرجل فقط، فالعبيد اختفوا من اليابسة، لكن العالم تجاهل أو يتجاهل، أن المرأة المسلمة عبدة لزوجها، ولأخيها وعمها وابن عمها، عندما أشاهد برنامجاً في التلفاز بخصوص العالم العربي أتساءل أين هم الحريم؟ نحن لا نراهم ولا نسمع أحداً يتكلم عنهن؟ كيف سيكون عالمي أفضل من عالم كهذا؟

غادرت المغرب مطمئنة لرؤية أهلي وقلبي يتقطع؛ لأني اكتشفت أني أعيش في واد وهم في واد. لم أتصور أبداً أن أواجه وحدي كل هذه المشكلات التي أصابتني وتحاصرني أنا وأولادي، أصبحت لا أرغب في الحياة. بل أريد البقاء فقط. آل موسوي حطموني، هذه هي نتيجة الزواج الملفق؛ زواج الإكراه، أين الحب من كل هذا؟ لقد حرمتني التقاليد والعادات البائدة من طعم السعادة؛ السعادة فقط.

openkandil.com

(19)

قتال حتى الموت

في 28 مارس 2002 عند الساعة العاشرة صباحاً أعلن وزير العدل الأمريكي دجون اشكروف أنه يطالب بالإعدام لولدي. وفي يوم 29 مارس ذهبت بالسيارة إلى مدينة مونبوليبي لإجراء تصريح صحفي، وكنت مسرعة جداً تلقائياً لأن عقلي كان غائباً عني.

كل أسئلة الصحافة تدور عن الحكم بالإعدام، كلهم يريدون معرفة مدى تأثير ذلك علي وهل سأتابع المعركة ...إلخ؟

عادت الذكريات السيئة بعد سبات طويل، ولدي الأول والثاني توفيا بسبب البؤس والفقر والمعاناة والعنف، إنه جرح عميق في قلبي لا يفارقني أبداً، وإني لا أريد فقدان ولد آخر؛ بسبب الهمجية وسوء العدالة وانعدامها. أصبحت غير قادرة على الإجابة عن أسئلتهم، فهربت إلى أقرب حمام، واستفرغت كل ما بأحشائي.

عند رجوعي إلى البيت كنت في حالة مأساوية، في الحافة كما يقولون، يا لها من لعنة؛ في هذه الأثناء فكرت في ابني الآخر عبد الصمد، لقد فقدته أيضاً منذ سنوات لم أقابله منذ هروبه مع فوزية التي غرست في قلبه الكره والغيرة، ولا أعرف عنه شيئاً إلا عن طريق ابنتي جميلة، فهي التي أخبرتني أنه أصبح إسلامياً. في طائفة غير طائفة زكريا.

obeikandi.com

لهذا السبب قام عبد الصمد بمغازلة وسائل الإعلام والميديا، لإغراق أخيه أكثر فأكثر. ناعتاً إياه بالتطرف والإرهاب، فهو يزود الصحافة بكل ما تريد، لتقوم بنشر كل ما يسيء إلى أخيه الذي ولد وترعرع في التطرف الأعمى حسب زعمه، وكل ما يفعله كان بمنزلة خنجر غرسه ابني في قلبي، هذا فظيع، لقد كان الواحد قريباً من الآخر في مرحلة الطفولة، وكانا لا يفترقان أبداً، أنا لا أوافق على هذا الكره الأعمى من عبد الصمد لأخيه زكريا، عندما قال للصحافة إنه لا يستغرب من تطرف أخيه، وانتمائه إلى الإرهابيين، فهو يحكم عليه قبل محاكمته من العالم أجمع، كيف يمكن أن يكون مثل هذا التصرف بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر؟ بين أخوين تربيا وترعرعا معاً، وتقاسما الحلوة والمرة معاً، وعاشا أجمل أوقات الغزل معاً، يا لها من محنة تواجهها أم. تشاهد بأم عينها معركة ضارية بين الأخ وأخيه بسبب الدين الواحد.

هذا عبء ثقيل. كيف أحمله؟ يجب أن أكلم عبد الصمد وأضعه عند حده، وأطالبه بالتوقف عن إيذاء أخيه، والكف عن التصريح بهذه الافتراءات. حتى إذا كان مقتنعاً أن أخاه متطرف، فليسكت. كل كلمة يقولها تساعد الجلادين على إغراقه، وإرساله إلى الكرسي الكهربائي.

هناك أصدقاء مستعدون للتدخل لإيقاف ابني عند حدوده، أخذت يدي ترتعش عند تناول السماعة.

- ألو أنا أمك.

- من سمح لك بإجراء هذه المكالمة؟ قال ذلك بعنف شديد.

- أنا أمك، لي الحق في مكالمتك في أي وقت.

- من أعطاك رقمي؟ ليس لك الحق في مكالمتي؟ أنا لا أريد ذلك، إنْ تستمري في مضايقتي سوف أزورك وأكسر رأسك.

- أنت تقوم بتعليم الإسلام للآخرين لكن الحقد متغلغل في قلبك، أهذا هو الإسلام؟

كانت المناقشة بيننا سلسلة من السب والشتائم والصراخ، وضعت السماعة مكانها منهكة، وعلى وشك البكاء. تأكدت أن ولديّ الاثنين في سجن. هذا مكبل بالحقد، والآخر في سجن حقيقي في أمريكة في انتظار الإعدام.

obeikandl.com

obeikandl.com

(20)

غرفة استقبال المساجين

كان يوم 22 أبريل 2002 الطامة الكبرى. أعلن زكريا أنه يرفض المحامين المعينين من قبل العدالة له، وأعلن الاستعداد للدفاع عن نفسه. بعد هذه المفاجأة اتصل بي أحد المحامين الأمريكيين.

- إذا استمر على الإصرار على الدفاع عن نفسه، فهو يقوم بحفر قبره بنفسه، وأضاف أنه وزملاءه قلقون عليه.

لقد أمهله القاضي شهرين للتفكير أكثر، بعد ذلك يجب إعلان قراره للمحكمة. لذا اتصل بي المحامي لإقناعي للقيام بمحاولة إقناعه بالرجوع عن قراره، والعدول عن فكرة الدفاع عن نفسه.

قلت له:

- لعلمك إني لا أستطيع مقابلته.

- لا تهتمي بذلك، سوف نقوم بترتيب كل شيء، هذه المكالمة وضعتني في موقف لا أُحسد عليه، من جهة يقول المحامي: إن زكريا يلعب بمصيره، ومن جهة أخرى يقولون، إنه يمكن مقابلته.

كيف حال زكريا اليوم؟ وماذا يشبه؟ هل لا تزال نظراته مخيفة؟ حزنت لأني سوف أقابل ابني في هذا المبنى الحزين المطوق بوسائل حراسة رهيبة.

obeikandi.com

أنا أعرف أن ظروف الاعتقال رهيبة أيضاً، فهو يعيش في عزلة لا مثيل لها، حيث يخضع لعمليات تفتيش دقيقة ومتواصلة، وليس له الحق في قراءة الجرائد، ولا مشاهدة التلفاز، ليس لديه شاشة أصلاً. حتى الرسائل منعت عنه؛ لا المراسلة، ولا الاستلام. يعيش معزولاً عن العالم، ليس هناك أبسط الأثاث بغرفته، ليس لديه إلا حصيرة للنوم، هناك آلة تصوير لتصويره باستمرار، موجهة في كل زاوية، مرئية أو مخفية، تراقب كل شيء حتى الحمام. النور لا ينقطع عن زنزانته ليلاً نهاراً، يقوم الحراس بإيقاظه كل نصف ساعة.

شرح لي المحامون الأمريكيون أن كل هذه الإجراءات وضعت لحمايته خوفاً عليه من الانتحار، ربما ذلك صحيح، لكن خوفي عليه أن يصاب بالجنون من جراء هذه الإجراءات غير الإنسانية.

في 11 يونيو 2002 وقفت أمام سجن الإسكندرية في ضاحية واشنطن، انتظرت كثيراً أمام هذا المبنى الرهيب، يا له من مبنى مخيف، كنت أتخيل، كيف كان ولدي يقضي الأيام والليالي في انفراد تام داخل غرفة صغيرة؟ سالت الدموع من عيني، هي أول مرة أزور فيها السجن، مع أن عمر أبو أولادي دخل السجن عدة مرات بسبب السكر والعراك، ولكني لم أزره. أما اليوم فأنا خائفة مما سوف أرى داخل السجن الرهيب، ولا شيء يمنعني من الدخول ورؤية ولدي.

السجن موحش، كانت البداية ممراً طويلاً لا نهاية له، وليس فيه أي حركة. كل ما تقدمنا فتحت أبواب وأغلقت أخرى تلقائياً، وكانت هناك مراقبة دائمة، ومتواصلة بأجهزة التصوير. عشرات آلات التصوير تراقبنا وترافقنا، وهناك رائحة كريهة في الممر. رائحة تقطع النفس، فقدت

الإحساس بالوقت. وفي هذه الأثناء اعترضنا أحد الحراس للتفتيش، ثم طلب منا الانتظار في صالة مجاورة مع المحامين المرافقين لي، هناك أيضاً أربعة رجال من الأف - بي - أي، بالإضافة إلى حارسين كانا ينظران لي ويدققان في بشيء من الاحتقار، كيف لا؟ فهم ينظران إلى أم الإرهابي التي لا تستحق أي اعتبار، مثلها مثل ولدها، فليفكروا كيفما يشاؤون، هذا لا يهم. المهم هو رؤية ولدي، ولا شيء غيره.

انفتح الباب، فكانت في استقبالنا حارسة امرأة زنجية بالطبع، بدينة جداً. عند رؤيتها قلت بداخلي إنها تتنفس الطيبة والحب، لماذا وضعوها هنا، في هذا السجن الرهيب، إنها تستحق أحسن من ذلك.

شرحت لي بمنتهى الأدب والأسف، أن زكريا لا يرغب في مقابلتي اليوم، ويريد تأجيل الزيارة إلى الغد، فهو يريد التركيز لإعداد نفسه لمقابلة القاضي غداً، انفجرت عيناي بالدموع من الصدمة. ثم قالت لي:

- سوف أرجع إليه، وأحاول إقناعه باستقبالك مهما كان، فأنت أمه.

- مهلاً يا سيدتي، خذي هذه الصورة أعطه إياها من فضلك.

- طبعاً، طبعاً يا مدام.

ذهبت، ورجعت بعد ربع ساعة دون أن تستطيع إقناعه، لكنه أخذ صورتي وقبلها، وضمها إلى قلبه، وقالت لي: أنا أخبرته أنك ستزورينه في الغد، ويجب استقبالك، وإلا سحبته من أذنيه وأحضرته إليك، قالت ذلك بابتسامة لطيفة، وابتسمت أيضاً تحية لابتسامتها الإنسانية، خففت طيبتها وإنسانيتها من حزني على عدم رؤية ولدي، قرأت في نظراتها أنها

لا تنظر لي كوني أماً للإرهابي؛ بل تنظر لي كوني أماً فقط؛ أماً مثلها، الأم التي تتعذب من أجل ابنها.

في 12 يونيو لم أذق طعم النوم طوال الليل، وعند الساعة التاسعة صباحاً، سوف يأتي زكريا إلى مجلس القضاء لتأكيد قبول المحامين أو رفضه.

تجمع كثيرٌ من الناس أمام قصر العدالة، من بينهم كثيرٌ من الصحافيين، إنهم يجهلون أني سوف أحضر الجلسة، لذا سوف أدخل بكل هدوء. القاعة مملوءة بالزوار، وجلست في الصف الثاني حتى أتمكن من رؤية وسماع كل شيء، بعد بضع دقائق قدم زكريا محاطاً بحارسين. يداه ورجلاه مقيدتان، كان في زي السجن، ذي اللون الأخضر، لا أكاد أصدق لم أعرفه فهو ملتحٍ، وفقد كل شعره، وأصبح هزيلاً جداً، ويبدو عليه التعب. باختصار حالته كئيبة جداً، لقد صدمت عند رؤيته، فعندما رأيته منذ خمس سنوات سجد أرضاً وطلب مني أن أغفرله، كنت أظن أنه يطلب مني الغفران على السنوات الماضية التي أذاقني فيها شر العذاب، ولم أتصور أبداً أنه يطلب مني ذلك على تصرفه في رفض المحامين. هو الآن واقف أمام القضاة، كتب على ملابسه بالحروف الكبيرة سجين في انتظار الحكم بالإعدام المسلط عليه في أي لحظة. وقفت حتى يتمكن من رؤيتي، وهذا ما حصل فعلاً. وجه لي التحية بيده، أبسط تحية، لكنها ملأت قلبي فرحاً، وزرعت فيه الأمل، يبدو أنه ما زال قوي الإيمان، وغير محطم كما كنت أتوقع، لقد كنت أتوقع أنه سيفقد عقله من جراء الإجراءات غير الإنسانية التي يعيش فيها، إنه لم يصب بالجنون لذا يجب علينا الدفاع عنه، وإنهاء معاناته. بدأ القاضي يتكلم ويتكلم، حتى جاء دور المحامين، وكان زكريا على وشك الانفجار، فهو لا يتوقف عن المطالبة بالتكلم، ومصارحتهم أنه

بريء من كل التهم، ولا علاقة له بالتفجيرات التي حصلت، لكن القاضي أخبره أن دوره لم يحن بعد، وأنه غير مطالب بالاعتراف بما فعل أو لم يفعل، ولكنه مطالب بقبول أوعدم قبول المحامين، ألح زكريا من جديد، وطلب التكلم. لكن القاضي جدد رفضه.كان الجو متوتراً بينهما، وكنت أدعو له حتى يتراجع عن قراره، ويقبل المحامين للدفاع عنه، وقف وبصوت عال أعلن أنه سيدافع عن نفسه دون المحامين، كانت لكلماته وقع لكمة الملاكم. قلت لنفسي: هذه نهايته. كيف يمكنه أن يكسب قضية مثل هذه أمام القضاء الأمريكي؟ وبعد دقائق نهض وغادر المحكمة للعودة إلى زنزانته، بعد هذه الجلسة وعند الساعة الثانية بعد الظهر ذهبت من جديد إلى السجن.

عند دخولي شعرت بضيق التنفس الذي شعرت بها بالأمس، أصابني المغص نفسه، هذا المكان يصيبني بالجمود وأشعر بالانهيار التام. أمشي وكأني نائمة.

هذه المرة قبل استقبالي، مدة الزيارة ساعة فقط. إني لم أره منذ 1997، لم أستلم منه أي رسالة منذ ثمانية أشهر، حتى نتمكن من الوصول إلى مكان الاستقبال صعدنا بالمصعد المجهز آلات تصوير أمنية موجهة في كل الاتجاهات، وصل المصعد إلى ممر فيه عدة أماكن مخصصة لاستقبال الزوار، وهناك جدار من الزجاج يفصل بين السجين والزائر. كنت أتصورها مثل التي كنت أشاهدها في الأفلام الأمريكية.

زكريا موجود هنا في انتظاري خلف الزجاج الذي يفصل بيننا، جلست أمامه على أريكة من خرسانة، لقد عقدت العزم على التحكم في أعصابي وعدم البكاء، حتى لا يشعر بالألم الذي بداخلي، وحتى لا أزيد من معاناته،

وكي لا أسمح للمراقبين بالشماتة بي. لاحظت أن إحدى يديه مقيدة بخصره، أما الثانية فكان يستخدمها للإمساك بسماعة الهاتف الذي نتخاطب عبره، نظرت إلى وجهه وعينيه، فقرأت فيهم، الحزن الشديد الذي يهيمن عليه.

بادرني بالكلام عبر سماعة الهاتف، وسأل عن أحوالي، طلب مني عدم القلق بخصوصه؛ لأن كل شيء على ما يرام، وسيكون كل شيء أفضل مستقبلاً.

قلت له:

- وأنت كيف حالك؟

- قلت لك لا تقلقي إني بخير.

أنا لا أصدقه، كيف يكون بخير وهو يواجه الإعدام؟ بالإضافة إلى ظروف الحياة القاسية في السجن التي تنهكه يوماً بعد يوم وتنال من صحته.

أنا أعرف أنه طلب من إدارة السجن إطفاء النور في غرفته ليلاً، لكن طلبه قوبل بالرفض. مسموح له ساعة في اليوم للمشي في فناء صغير ومغلق، المحققون أيضاً لا يحققون معه إلا من خلف الجدار الزجاجي، بعد خضوعه لعملية تفتيش دقيقة.

لا أريد أن أعرف كيف يقضي أيامه ولياليه، لم أرَ وجهه منذ مدة طويلة، ولا أريد إلا شيئاً واحداً، منحه كل الحب، وأقول له: إن قلبي لا يدق إلا من أجله. دون أن نشعر تلاصقت يدي ويده من خلف الزجاج الفاصل، لكن بعد دقائق سحبت يدي ووضعتها فوق ركبتي لمنع رجلي من الارتعاش، كان الانفعال والضغط النفسي يسيطران على الموقف. إني أريد

obeikandl.com

احتضانه والبكاء معه، ولكن ذلك مستحيل، أريد أن أوجه له ألف سؤال، لكن المحامين منعوني من الكلام في قضيته، وخصوصاً في ملف القضية، خوفاً أن يحسب ذلك عليه، ويؤثر سلبياً على قضيته.

لست بحاجة إلى الكلام، لأنه يقرأ كل شيء في عيني، قال لي فجأة: أنا بريء، لا تصدقي كل ما يقولون، يجب أن تعرفي أنه ليس لديهم أي دليل ضدي، للعلم أنه في 10 ديسمبر قامت السلطات الأمريكية بإشعاري بالاستعداد لمغادرة الأراضي الأمريكية، بينما كنت أقبع في سجن مينيسوتا، وتم تحديد يومين للمغادرة. هذا دليل على أنهم لا يتهمونني بأي شيء، ومعنى هذا أني بريء وفجأة في 12 ديسمبر تغير الموقف، وتم عزلي في السجن. لم أفهم أي شيء عن ماذا جرى، أو ماذا يجري؟

تذكرت تعليمات المحامين ولا أريد المغامرة في هذا الميدان، لذا بدل أن أطرح عليه بعض الأسئلة غيرت الموضوع، وبدأت أزوده بمعلومات عن أخواته ومشكلاتهن اليومية، وأخبرته أيضاً عن أمي وزيارته لها سنة 1998، وعن أبناء خاله.

تكلمت أيضاً عن أشياء لا معنى لها ولا طعم، أما هو فكان يردد لي الجمل نفسها. أقسم بالله إني لم أفعل شيئاً. إذا أراد الأمريكيون إعدامي سوف يقومون بإعدامي بسبب أفكاري لا غير، وأظن أن كل واحد منا متضايق من هذا الموقف المؤلم، وكل واحد يواجه الآخر في موقف لا يحسد عليه، هو متهم بالانتماء إلى الإرهابيين، وأنا أكلمه عن المشكلات العائلية، كأنه لا مشكلات تذكر، وأن كل شيء طبيعي.

بعد مرور ساعة رن الجرس مشيراً إلى نهاية الزيارة، لكنه استمر في التحدث معي. اقترب منه أحد الحراس ووضع يده على كتفه لإشعاره بالمغادرة إلى غرفته، يبدو لي أن الزيارة لم تدم إلا دقائق

سحب زكريا نفسه جانباً بعنف وقال له بالإنجليزية: أبعد يدك عني ثم وضع يده وشفتيه على الزجاج، وألصقت يدي بيده من خلف الزجاج، وودعني بعد أن قبلني من خلف الزجاج أيضاً.

قام من مكانه ووضع من جديد شفتيه فوق الزجاج وقبلني مرة أخرى، توقف قلبي في تلك اللحظة، وفهمت الآن لماذا لم ينهض عندما دق الجرس، فهو لا يريد أن أرى أن يديه مقيدتان بخصره.

رجعت إلى السجن بعد يومين، فقد نصحني المحامون أن أرفع من معنوياته حتى يتذكر الماضي، كما طلبوا مني الحديث عن العائلة وعن طفولته وحياته والاستعانة ببعض الصور القديمة، والتحدث عن أشياء تثير أحاسيسه وشعوره. إذا تمكن من الضحك أو البكاء فهذا شيء جيد؛ لأنهم هنا بالسجن على وشك تحطيمه وجعله مثل الرجل الآلي، مثل من يحارب ويجاهد من أجل الاستشهاد. إن حالته مأساوية، لذا يجب إخراجه من هذه الحالة، وإعادته إلى وضعه الطبيعي الذي كان يعيش فيه، لو كانت تتوافر لي الإمكانيات المادية لبقيت هنا في أحد الفنادق لأقوم بزيارته مرة في الأسبوع على الأقل، لو كنت أستطيع أن أراه باستمرار لأخرجته من هذه الحالة، ورجعت به إلى سابق عهده.

المحاولة كانت جيدة لأني شعرت أنه بدأ يشعر بالراحة، ويتفاعل معي إيجابياً، بدأ يبتسم بعد أن ذكرته بزيارته لجدته، وفي لحظة ما شعرت أنه

بدأ ينسى الحاضر، وحتى السجن الذي يقيم فيه. بدأ يضحك ورجع لمعان عينيه، وبدأ كأنه يشعر بالسعادة من جديد، وأنا أيضاً شعرت بالسعادة كأننا بعيدان عن العالم. بالرغم من ذلك كنت أسمع بالسماعة باستمرار: «من فضلك لم يتبق من الزيارة سوى ربع ساعة، عشر دقائق ...إلخ» وفجأة دق الجرس فرجعنا إلى الواقع؛ الواقع المرير، تبدل وجهه وتغيرت ملامحه، وأصبح مضطرباً من جديد. قال لي: لا تنسي يا أمي: إني أحبك والتفكير فيك يساعدني على الصمود هنا.

- لا تنسي يا أمي أنك بعد الله كل ما أملك من قوة، منذ أن رأيتك تحسن نومي.

لم تفارقني نظراته الأخيرة. حتى الزيارة القادمة.

الساعة تشير إلى السابعة والنصف ليلاً، واليوم هو موعد الزيارة الثالثة والأخيرة، أحاول ألّا يكتشف أني حزينة، تفحصت وجهه فوجدت وجهه يشبه الأموات، وكانت نظراته شاردة. شعره خفيف ولحيته كثيفة سوداء، ولا ينفك عن مداعبتها بيده البيضاء، كل شيء يوحي بأنه عجوز طاعن في السن.

سألني عن والده وأخيه، وطلب مني أن أكلمه عن الجميع، ما عدا الكلام عنه. يريد أن يطمئن على الجميع، أخبرني أنه يحافظ على أداء صلواته اليومية، ماذا أجيبه عن كل هذا. قلت له: إني مشتاقة له كثيراً، منذ سنوات انقطعت زيارته، منذ أن تعرف على الإسلاميين. كان من الصعب إفهامه أنه في موقف خطر لا يحسد عليه، وأن الاتهامات الموجهة له ثقيلة جداً.

- قال لي من جديد: لا تسمعي كلامهم، أنا فقط أحاول الدفاع عن الإسلام، وحقوق المسلمين، ولست مجرماً. يداي نظيفتان، ومكاني ليس في السجن، إني أتحداهم كلهم.

- توقف يا ولدي؛ لأن كل كلامك مسجل ومحسوب عليك.

- لا يهم.

قال ذلك بابتسامة كلها تحدٍّ، ثم استرسل يشرح لي كيف أصلي، وكيف أدعي لكي نتقابل جميعاً في الجنة إن شاء الله، كل العائلة. ثم أضاف أنه من واجبه تذكيري بكلام الله، وأن حياتنا في الدنيا مثل حياة عابر سبيل، كنت أظن أني في حلم، صلواتي لا تهمني إلا أني أعرف جيداً مبادئ الإسلام، كما أعرف أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأعرف أركان الإسلام الخمسة معرفة جيدة، ولست بحاجة إلى دروس من أي كان، ولست بحاجة إلى تلقين الآخرين دروساً أيضاً، كنت أود أن أقول له إني سترت رأسي لإرضائه فقط، لأني لا أحب ذلك، وأشعر أني متخفية وراء قطعة من قماش.

لقد تغير زكريا عن قبل، كلامه وطريقة كلامه أيضاً لم يبق أي شيء من الماضي «سوى أمي الصغيرة» فهو لا يتكلم إلا عن الإسلام. عن إسلام متطرف يطالب بالجهاد والتضحية فقط، إسلام بعيد عن الحياة الطبيعية.

أصبحت لا أفهمه كأنه ليس ولدي، فزكريا الذي يواجهني هذا ليس ابني زكريا؛ الذي يحب الحياة والضحك أيضاً. أعتقد أن الجماعة التي تولت تدريسه الدين سيطرت عليه تماماً، وصنعت منه زكريا آخر بعد عملية غسيل لمخه.

إنه يقول لي إنه سيتولى حمايتي بعد خروجه من السجن، قلت له إني عجوز ولا أحتاج إلى حماية، والمهم هو حماية نفسه أولاً، اغتنمت هذه الفرصة لمحاولة تهدئته، وإثنائه عن فكرة الدفاع عن نفسه. وقلت له:

- لماذا لا تترك المحامين يتولون الدفاع عنك؟

أجابني:

- بالعكس هم أيضاً يريدون إغراقي، إنه فخ، هم يستلمون أتعابهم من الحكومة.

- ماذا تريد في النهاية، أتريد أن تقف بمفردك ضد القضاة، وتدافع عن نفسك؟ وتخرج منتصراً من معركة مثل هذه؟

- لا تقلقي يا أمي، سوف ترين أنني سوف أنتصر إن شاء الله.

أصبحت خائفة أكثر من قبل، إنه مصرٌّ على مواجهة العدالة وحده، لقد حاولت إقناعه دون جدوى، إنه مقتنع أن الكل -القضاة والمحامين- يتآمرون عليه لإعدامه.

فكر قليلاً، ثم طلب مني مخاطبة محام في لندن اسمه صديق خان، وهو من المحامين المطلعين على الشؤون الإسلامية. دونت اسمه على كف يدي بقلم الكحل المخصص لعيني وقلت له:

- طيب، طيب بما أنك تريد محامياً قريباً من الإسلاميين، هنا واحد مستعد للدفاع عنك من أصل لبناني.

قال لي بخشونة:

- لا أريده لا داعي لمقابلته.

- لكني طلبت سلفة من البنك لتسديد أتعابه، وأعطيته عربوناً ثمانية آلاف فرنك.

- لماذا طلبت سلفة من البنك؟

- لا أملك من المال ما يكفي، وأريد مساعدتك.

- لا داعي لذلك، أنت لا تعرفين أن التعامل بالربا مع البنك حرام.

- ماذا تقول؟ انظر إلي، أنا وحيدة، وتعقدت الأمور أمامي، ولست أدري إذا كنت سأنجح في مساعدتك أم لا.

شعرت بالضياع فهو يطلب مني المساعدة، ويطلب مني الذهاب إلى واشنطن، ومقابلة أعضاء مجلس الشيوخ للدفاع عنه، وإقناعهم أن الأف - بي - آي لفقت له كل التهم، لقد نسي أني مجرد أم عجوز متقاعدة تسكن مدينة صغيرة تعلمت القراءة والكتابة في الدروس الليلية، وكانت عمرها ثلاثين سنة.

غادرت السجن منهارة وسعيدة، وفي الوقت نفسه سعيدة لأني رأيت ابني ثابتاً على قدميه لم يدمره السجن، ولا الظروف القاسية التي يعيش فيها، ومنهارة لأنني لم أستطع إقناعه بالتخلي عن فكرة الدفاع عن نفسه دون مساعدة المحامين.

مع العلم أن المحامين الأمريكيين مستعدون لتجنيد الأرض والسماء لإثبات براءة زكريا، لقد قاموا بتجميع العديد من المعلومات التي تثبت

obeikandl.com

أن التّهم الموجهة إليه باطلة، وأنه لا علاقة لزكريا بأحداث 11 سبتمبر، ليس هناك أي دليل ضده. هناك كثير من الافتراءات. اتصالاته بأمريكة ومقابلاته قبل إيقافه، لا تتوافق إطلاقاً مع اتصالات فرق الموت التي أعدت لأحداث 11 سبتمبر، كل هؤلاء كانوا يعرفون بعضهم بعضاً، وزكريا لا يعرف أحداً منهم. كلهم كانت لهم علاقة متينة بينهم، بينما زكريا لم تكن له أي علاقة مع أحد منهم. كيف يمكنه إثبات كل هذا بمفرده؟ ومن أين سيجمع كل الوثائق الضرورية إذا كان يريد الدفاع عن نفسه؟

قبل مغادرتي طلب مني مقابلة محام قام بزيارته اسمه فريمان، وطلب مني التنسيق معه، وتقديمه إلى وسائل الإعلام.

قمت بمقابلته في صباح الغد، إنه أمريكي أسود ملتحٍ ويرتدي الزي الإسلامي، ويبدو مهماً وواثقاً من نفسه. سألته عن رأيه في القضية؟ وهل له الاستعداد لمساعدة ولدي؟ قال لي:

- لقد اختار ولدك طريقه وهو يعرف ماذا يريد، وإذا أراد أن يموت شهيداً لست أنا الذي سأمنعه، لا تقلقي سوف أكون بجانبه عندما يتم تنفيذ الإعدام.

- هل هذا الرجل يسخر مني، هذا غير معقول، إنه لا يولي أي اهتمام لولدي، ولا لقضيته. لا يهمه إن كان مذنباً أو بريئاً، لقد حطمني. لاحظت أن بيده مسبحة الحبشيين. طائفة إسلامية تدعو إلى الصرامة، فهمت أن هذا الرجل إسلامي متشدد أكثر من محام، إذا تولى أمر زكريا، فمصيره الإعدام سابقاً.

حدد لي موعداً في اليوم الثاني لإجراء مؤتمر صحفي بحضور الميديا، مثل ما طلب مني زكريا. لكني قررت عدم الحضور، لأن التعامل مع هذا الرجل يعني الانتحار.

لا أريد أن يغتنم هذه الفرصة للترويج إلى أفكاره السياسية، بينما أنا لا أريد إلا محاكمة عادلة تبرئ ابني من التهم الموجهة إليه.

إني أجد أن هذا الرجل مشكوك فيه شيئاً ما، كيف حصل على إذن لمقابلة ولدي؟ وجلس معه مدة طويلة؟ وكيف استطاع أن يجلس معه مباشرة لسماع أقواله، بينما المحامون الذين تم تعيينهم للدفاع عنه لم يستطيعوا ذلك؟ كيف منحته الأف - بي - آي هذا الامتياز.

كل هذا ضاعف من شكوكي في هذا الرجل، ولا أريد أن أسمع عنه أكثر من ذلك، إني أتمنى شيئاً واحداً. أن يبتعد هذا الرجل عن زكريا.

obeikandl.com